

تعظيم الشرف

يبدو أن الطبيعة ، كما لذلها أن تتوج الذرى الثلجية بأزهار نادرة رقيقة بديعة ، قد حرصت كذلك على إظهار لون من التأنق فى أن تخرج من رمال صحراء العرب القاحلة نبتة فواحة ، تفتتح عن أعذب أزهار الدنيا عطراً وأرقها فتنه وسجراً . أما هذه النبتة فهى « الشرف » وأما أزهارها فهى : الوفاء ، والولاء ، والإقدام ، والجود ، والمروءة .

ويعرف « شاتوبريان » الشرف فى العصر الحديث ، بأنه « فضيلة تعتمد فى أغلب الأحيان على تضحية ما عداها من الفضائل ، فضيلة قد تنتكر للسعادة ، ولكنها لا تنتكر للشقاء أبداً ، فضيلة لا تهدأ لها نائرة إذا اشتمت إهانة ، أثره وإن كانت أنبل شخصية ، تقسم اليمين لنفسها ، وهى لنفسها القضاء والقدر . ولقد ولد الشرف — بمعناه هذا — من ولاء الهبة الأرستقراطية لشخص الملك ، على حين كان هذا الملك مجرمًا^(١) . ويشرح « هرود » ذلك بقوله : « من الواضح أن مهنة حمل السلاح كان مقضياً عليها بأن تنحلّ وأن تصبح همجية صريحة ، منذ أن باتت حقاً

(١) شاتوبريان: تحليل مشروح لتاريخ فرنسا - الإقطاع، الفروسية، الخ . . . ، ص ٨٢ وما يليها . انظر كذلك الصفحات الرائعة التى وصف فيها الشرف الفريه دى نيبى (A. de Vigny) فى كتابه : عبودية المسكرى وعظمته .

ورائياً ، ومنذ أن صار الفارس الشهم الولي - في مهده - شريفاً من أرباب القصور . ولقد عمد أمراء بعيدو النظر ، ممن ربوا لديهم حراساً متعطلين ، إلى تحسين المنظمة ، كما سعوا - حرصاً على أمن بلاطهم وأسراهم وأملاكهم - إلى صقل أخلاق هؤلاء الغلمان البواسل وتهذيب أرواحهم . ومن هنا نشأت تلك القوانين الصارمة ضد كل خيانة أو خسة ، ونشأت هذه الواجبات النبيلة : نصرة المظلوم ، والدفاع عن العرض ، والكرم إزاء العدو - وكلها أوامر ونواه تهدف إلى درء عنف أولئك الذين يحملون السلاح ، وترويق شدة نزعاتهم» (١) .

ومما سبق ، ينبغي أن نستخلص أولاً : أن تعظيم الشرف لم يظهر في أوروبا إلا إبان القرون الوسطى ، وثانياً : أن تعظيم الشرف كان في ذلك العصر صفة اقتصت بها طبقة معينة هي الهيئة الارستقراطية من أمراء وفرسان ، وثالثاً : أن ذلك يظهر في أول الأمر بمثابة إجراء للتأمين ضد وحشية المقاتلين قبل أن ينفذ إلى أعماق الأخلاق ويصبح الخافز إلى أفعال الفروسية .

وعلى نقيض ذلك ، يبدو الشرف أول وليد أنجبه المجتمع العربي . فهو الخير العام ، ينعم به الجميع ويدينون بمبادئه ، لا تمتاز به طبقة أو هيئة دون سواها . وإذا صعدا في تاريخ العرب إلى أقصى ما نستطيع أن ندرك منه ، وجدنا الشرف يلهم فصاحتهم ويغزوها ، ويهدى سلوكهم

(١) هرود ، ج ٣ ، ص ٤٣٦ ، ترجمة « كينيه » .

ويقومه ، وكأنه النبع الفياض تصدر عنه جميع بطولاتهم . لقد أدت طبيعة أحوال أولئك الناس الذين يعتبرون أكثر أهل الأرض تمتعاً بالحرية ، إلى أن يتفاهموا على حصر وتحديد الأخطار التي تعرضهم لها حياتهم المليئة بالمغامرات والاحتياجات وأسباب الفخار والشجار ، وهم الذين لم يعترفوا بسلطان عليهم لأمر أو قانون أو حكومة . ولقد خلق لديهم تشابه أوضاع العيش تشابهاً في العواطف ، فإذا هم يجتمعون من تلقاء أنفسهم على احترام المرأة والضيف والجار والمظلوم ، لأنه كان من مصلحة كل منهم ألا يلحق به ولا بأهله العزل أذى . ومن هنا كان الإجماع على نبذ كل فعل يشوبه الغدر أو الخين أو الدناءة . وهكذا ، منذ عصور لا تعيها الذاكرة ، قام المجتمع العربي - نتيجة لخصائص البيئة وأهلها - على التزامات بسيطة ، فلم يكن له قانون سوى العهد ، ولم يكن له وسط تباين العقائد وشتات القبائل سوى راية واحدة ودين واحد ، ألا وهو الشرف .

وتبع هذا الدين شعب بأسره من المؤمنين والشهداء . ولما كان فخر الرجال بينهم بجزالة صفات الكمال شعوراً حياً دائماً ، فقد أدى ذلك إلى إذكاء طموحهم وزيادة قدرتهم على التحسن . لأنهم لم يقنعوا باحترام جميع مظاهر ضعف الضعفاء ، بل نصبوا أنفسهم حماة لها ، أباة لا يتغنون جزاء ولا شكوراً . ولم يقنعوا في سبيل ذلك ببذل الضيافة والقرى ، بل وتجردوا مما لهم ، وخرّبوا ديارهم ، وحرّموا أنفسهم من الضروري اللازم حرصاً على ألا يرفضوا قط سؤلاً ، وأن يهبوا ويغدقوا . وما إن بلغوا هذه الدرجة

حتى تجاوزوها، فلقد راحوا يتلهفون على الإغاثة وإزجاء القرى . ويستعجلون لقاء المستجير والضعيف ، وهكذا استحال البدو الرحل كما شاءت لهم الطبيعة فرساناً هائمين ، وتصدوا لإنقاذ المنكوب ، وسعوا لإعانة البائس . وسيطر عليهم جنون الشرف سيطرة واقعية .

ولما كان الكمال يجذبهم كما يجذب المغناطيس الحديد ، وكما يجذب القطب المغناطيس ، يريدون بلوغه رغم كل شيء ، فلقد أفلحوا على أقل تقدير في أن يلقوا علينا درساً نبيلة ، وفي أن يضرّبوا لنا أمثلة عالية في الزهد والولاء ، والكرم والمروءة . وتسبقوا جميعاً في مضمار فضائل الرجولة وكل منهم يريد أن يدرك المكانة الأولى ، فأدركوا أسمى مكانة يصبوا إليها إنسان . ولن نحاول أن نعدد على مسبحة أسماء تلك الفضائل ، خشية أن ينفذ صبر القارئ . لن نتحدث عن شجاعهم ولا عن بسالهم ، فلقد كانت الشجاعة والبسالة بينهما عملة شائعة رائجة . ولن نتحدث عن دين الثأر الذي اعتنقه ، ولعاه كان أعمق عواطف النفس العربية . وسوف نضطر أيضاً إلى الإيجاز في ذكر العرض - وهو أرق وأبمن تلك الأزهار - هذا الجانب المرهف الذي يبأي الإهانة^(١) ، ويدفع الرجال إلى التضحية

(١) « العرض - وهو ترفه الشرف - لون من الارتياح الحذر الذي لا يدفع الخسة والعار فحسب ، بل يبأي أدنى شك يتردد حول الشرف والشجاعة ، والذي لا يثور ضد الإهانة فحسب ، بل يثور ضد ظل الإهانة » .
جان - جاك أمبير : منوعات من التاريخ الأدبي والأدب . ج ١ ، ص ١٨٦ .

بجياتهم ، وأمواهم ، بل وبقيلتهم ، في سبيل محو وصمة لحقت بالشرف .
وباله من شعور رائع أحال الشاعر الشنفرى وحشاً ضارياً لا يرضى بالموت
قراراً إلا بعد أن قتل مائة من بني سلمان ، إذ صفعته صبية منهم . إنه
ذلك الشعور الرائع الذي « أثار عام ١٥٦٨ جميع أهل البزارة بغرناطة ،
وأهلك خمسين ألفاً من الأندلسيين في سبيل الثأر من « دون جوان
دى مندوزا » الذي ضرب بالعصا « دون جوان دى مالك » سليل بني
أمية » (١) .

ولسوف نقنع هنا - فلا بد من الحدود - برصد الفضائل العربية في
إطار شرائع الفروسية الأوروبية . وسيتيح لنا ذلك فائدة مزدوجة ، إذ نركز
موضوعنا من ناحية ، ونبين من ناحية أخرى أن العرب كانوا يتمتعون
بالعواطف التي اصطلح الناس على نعتها بالعواطف المسيحية .

ويمكن أن نوجز قانون الفروسية - وهو الذي لم يصغ قط في نصوص
واضحة (٢) - بأن نعرضه في ثمانى وصايا ، تختص أربع منها بفروض
الدين ونظام الإقطاع ، وأربع بدعائم العسكرية والفروسية . وسوف نعرض
الوصايا الأربع الأولى عرضاً سريعاً ، ونورد ما يقابلها من النصوص القرآنية ،
ثم نقف وقفة أطول عند فضائل الفرسان التي استنها قانون الفروسية :

الوصية الأولى : مؤداها ، أنه « يجب الإيمان بجميع تعاليم الكنيسة

(١) س . دى سيسوندى ، ج ١ ص ٢٦٨ .

(٢) جوتيه : الفروسية ، ص ٣١ .

واتباع جميع أوامرها» وأن على الفارس - فضلاً عن أداء بعض الواجبات الدينية كشهود القداس ، والاعتراف ، والتناول قبل القتال - واجب « الموت في سبيل الإيمان وفي ظله » . وفي ذلك يقول الشاعر « أوستاش ديشان » (Eustache Deschamps) :

الفرسان في هذه الدنيا
لا يستطيعون أن يعيشوا بلا همّ :
فعلينهم أن يدافعوا عن الشعب
وأن يريقوا دمهم من أجل الإيمان^(١) .

وكان أداء هذا الواجب - واجب لإراقة الدم من أجل الإيمان - ضماناً للمقاتل أن يثاب في الأعالى « بالمجد المطلق » وبشذى أزهار الفردوس المقدسة .

ويقول القرآن : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » .

ويقول النبي : « والذي نفسى بيده ، لا يكلم أحد في سبيل الله - والله أعلم بمن يكلم في سبيله - إلا جاء يوم القيامة واللون لون الدم والريح ريح المسك » .

وهكذا نرى أن الإسلام والمسيحية متفقان في اعتبار أولئك الذين

(١) عن لاكورن دي سانت - باليه ، ص ١٢٨ .

يموتون دفاعاً عن معتقداتهم وعن مثلهم الأعلى أصفياء وشهداء ، جديرين
بنعيم السموات .

وليس أعدل من ذلك .

وتقول الوصية الثانية « ينبغي أن تحمي الكنيسة » ، وبعبارة أخرى :
افعل كل ما في وسعك للمحافظة على المسيحية وتقويتها .

ويقول القرآن : « فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا
بالآخرة ، ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً
عظيماً » .

ونقرأ هذه الآية أيضاً : « انفروا خفافاً وثقالاً ، وجاهدوا بأموالكم
وأنفسكم في سبيل الله ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . »

أما الوصية الثالثة فهي : « اعلن على الكفار حرباً لا هوادة فيها
ولا رحمة » .

ومن المعروف أن هذه الوصية قد طبقت في العصور الوسطى تطبيقاً
حرفياً دام عدة قرون ، واحتدم خلالها تعصب لم يستخدم مثله بعد ذلك
أبداً . ويلاحظ جوتيه « أن جميع قصص تلك الحقبة ما هي إلا رواية
ذلك الصراع العظيم الهائل »^(١) . ويلتمس خير تصوير للفرسان المسيحيين
وأصدقه في هذين البيتين :

(١) جوتيه ص ٧١ .

« إنهم يقاتلون الترك تطوعاً ورضاً

وكثيراً ما يتعمدون في دماهم » .

ولا يشفى الموت نفسه غاة أولئك المحاربين المتوحشين ، إذ يبدو أن لذات الخلد تعجز عن الحد من انطلاقهم إلى مقاتلة الكفار . فلقد كانوا يقولون : « ولئن كنا في الفردوس راقدين ، لمبطننا منه لمقاتلتهم » ولعلمهم يهبطون كذلك راضين لتأديب المارقين من أهل « ألبى » .

وينبغي أن نعرف بأن المسلمين - في زمن رخائهم وسلطانهم على الأقل - قد أظهروا في الخارج وفي الداخل روح تسامح أعظم . فهم في الخارج لم يعمدوا مطلقاً إلى ذلك الاعتداء الصارخ ، وإلى إرغام الناس على تغيير عقائدهم قهراً ، كما حدث مراراً في تاريخ الحروب الصليبية ، وحروب أسيانيا ، وسقوط غرناطة ، فالشريعة القرآنية تقضى بأن يوجه إلى الشعوب التي يراد مهاجمتها إنذار سابق لكل عمل عدائي . قال تعالى : « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ... » وقال : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » . وهذا هو الخليفة أبو بكر يخطب في جنود أسامة الماضين إلى غزو الشام ، في نفس السنة التي توفي فيها محمد (٦٣٢) ، أي في أشد أطوار النزعة الدينية عند العرب فيقول : « قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني : لا تخونوا ولا تفلوا ولا تغدروا ،

ولا تملوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تدبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لما كلة . وسوف تمرّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام ، فإذا أكّتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليه . وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب ، فاخفقوهم بالسيف خففاً . اندفعوا باسم الله ، أقتلوا الله بالطعن والطاعون (١) . وما هؤلاء الرجال الذين يعيشون معتزلين سوى الرهبان المسيحيين .

وإذا تم فتح بلد من البلاد ، كانوا يدعون لأهله دينهم وعاداتهم بل ونظامهم الإداري . وما كانوا يفرضون عليهم إلا دفع جزية هي في أغلب الأحيان أقل مما كانت تفرضه عليهم الحكومة السابقة من الضرائب . وإن هناك حديثاً ثابتاً يحث على احترام حقوق الذميين (المسيحيين واليهود) إذ لهم حسب السنة ما للمسلمين من حقوق ، وعليهم ما على المسلمين من واجبات (٢) ، ومن آذى ذمياً كان غير جدير بالإسلام (٣) . لقد أصاب « فوربيل » إذن عندما قال : « ولا يقدم التاريخ قط مثلاً من الاضطهاد أو الحيف الموجه ضد المغلوبين ، ولقد أولى جميع الرؤساء المشهورين

(١) الصديق أبو بكر . لمحمد حسين هيكل ص ١٠٥ (تحقيق) .

(٢) و (٣) الشيخ محمد عبده : الإسلام والنصرانية ص ٧٤ .

بالإنصاف حمايتهم جميع رعاياهم بلا تفریق (١) .

ويمكن أن تصاغ الوصية الرابعة على النحو التالي : « ينبغي أن تؤدي واجباتك الإقطاعية » ، أى أنه كان يجب على الفارس أن يبق على وجه الدقة بجميع الالتزامات الإقطاعية التى تقع على عاتقه ولا سيما الإخلاص لمولاه .

ويوصى الإسلام من جانبه « بطاعة أولى الأمر » ، ولكن طاعة غير عمياء . فهناك حديث أورده البخارى ومسلم ، يقول : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » (٢) .

ومن الطريف أن نلاحظ هنا أن صاحب السيادة أو الخليفة ليست له سلطة دينية بالمعنى الصحيح . والأصل أن يعينه الشعب أو الجماعة التى تمثل الشعب ، فهو يستمد حقوقه لا من الله بل من الشعب ، الذى يستطيع أن يطيح به إذا تنكر لمبادئ العدل والإنسانية التى نص عليها القرآن . إن سلطاته مدنية لا دينية . وهو غير معصوم من الخطأ . وإذا

(١) فورريل : تاريخ غالة الجنوبية ج ٣ ص ٥٩ .

(٢) جاء فى بيان أصدره شريف مكة : « لا التزام لمخلوق بطاعة ضد شريعة الخالق . »

(جريدة الطان ١٢ نوفمبر ١٩١٦) . ولا توجد فى الواقع سلطة دينية مطلقة فى الإسلام . غير أن « العلماء » يعتبرون « أعلم » من سواهم ، ويعتبر تأويهم للشرع أقرب إلى الحقيقة . وعلى هذا النحو ينبغى فهم قول النبي : « الدين النصيحة » الذى رده علماء القاهرة فى بيانهم للمصريين ، وفيه يحثونهم على إيثار الهدوء أثناء الحرب (الصحف المصرية ٩ نوفمبر ١٩١٤)

كان من حقه أن يفسر النصوص الشريفة ، فإن لأهون رعاياه أن يشاطره هذا الحق . أو لم يشهد القوم السلطان صلاح الدين يمثل بين يدي القاصي وقد شكاه أحد رعاياه ؟ . . . لقد كسب قضيته ثم تنازل لخصمه عن موضع نزاعهما (بهاء الدين) .

وإن الوصايا الأربع الأخيرة من قانون الفروسية تشمل فضائل الفروسية الأربع الأساسية ، ألا وهي الشجاعة (لا تتقهقر أمام العدو) ، والوفاء بالعهد (لا تكذب وف بعهدك) ، والكرم (كن جواداً وأغدق على الجميع) ، وحماية الضعيف (احترام جميع الضعيفات وكن المحامي عنهن) . ولسوف ندرس هذه الوصايا على حدة .